الدرس الأول: كتاب "فحول الشعراء" للأصمعي قضية "الفحولة"

مقدمة

اهتم العلماء والنقاد بالشعر منذ القديم، إما حفظا أو شرحا أو نقدا...، لأنه فنهم الأول وديوان فخرهم، به يأخذون وإليه يصيرون، بل تركوا مؤلفات تشهد على عملهم، من أبرزهم الناقد الأصمعي صاحب كتاب "فحول الشعراء".

1. نبذة عن الكاتب

الأصمعي هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك...بن أصمع، ولد في البصرة سنة ثلاث وعشرين ومائة من الهجرة، تتلمذ على يد أبي عمرو بن العلاء، والخليل ابن أحمد الفراهيدي، وخلف الأحمر...عرف الأصمعي بروايته الواسعة، ومعرفته بالشعر ونقده، وبالتفسير والحديث والنحو، واشتهر بحفظه للأشعار والأراجيز. وتوفي سنة: 216ه.

مؤلفاته

كثرت كتب الأصمعي وتنوعت فمنها:

أ. خلق الإنسان
ب. الأراجيز
ت. معاني الشعر
ث. الخيل
ج. الإبل

2. نبذة عن الكتاب

يعد كتاب "فحول الشعراء" للأصمعي أول مؤلف وصل إلينا في تاريخ النقد العربي، وهو عبارة عن رسالة صغيرة. أسئلة قامت بين أبي حاتم السجستاني وأستاذه الأصمعي، دار الحوار حول شعراء الجاهليين والمخضرمين وأيهم يستحق صفة الفحولة، فأجاب الأصمعي عن هذه الأسئلة بأجوبة موجزة.

3. قضية الفحولة عند الأصمعي

أ. تعريف الفحولة

1. لغة

ارتبط مفهوم الفحولة في المعاجم العربية بالذكورة والشجاعة والقوة. فيقول ابن فارس في مادة (فحل) الفاء والحاء واللام أصل صحيح يدل على ذكارة وقوة، ومن ذلك الفحل من كل شيء وهو الذكر الباسل. أما في القاموس المحيط نجد أن الفحل: الذكر من كل حيوان، جمع فحول وأفحل وفحال وفحولة. وضد الفحل اللين.

جاء في لسان العرب لابن منظور، "فحول الشعراء هم الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم مثل الفرزدق وجرير وأشباههما، وكذلك كل من عارض شاعرا فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة".

2. اصطلاحا

أما عند الأصمعي فقد ارتبط مفهوم الفحولة بعالم الحيوان، انطلاقا من بيئته العربية الصحراوية، فسأل أبو حاتم السجستاني الأصمعي عن معنى الفحولة، فقال:"من كان له مزية على غيره"، كمزية الفحل

على الحقاق"، فإذا كان الفحل من الإبل ينتج عنه قطيعا فيرفع قدر صاحبه ومكانته، فكذلك الشاعر الحق الذي تجتمع فيه قوة الشاعرية مع نبل العبارة، وغلبة الأقران، وتوليد المعاني والسبق إليها، ومعرفة بعلم النحو والعروض، ومعرفة الأنساب...يصبح يقتدي به الشعراء من بعده، وينهلون من معينه.

هذا يتضح من خلال قول الأصمعي:لا يصير الشاعر فحلا حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه الألفاظ، وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزانا له على قوله، والنحو ليصلح به لسانه، ويقيم به إعرابه، والنسب وأيام العرب، ليستعين بذلك على معرفة المناقب وذكرهما بمدح أو ذم.

ب. معايير الفحولة عند الأصمعي

وضع الأصمعي عدة مقاييس فنية ليصبح من خلالها الشاعر فحلا وتتجلى في:

1. معيار الكثرة

من المعايير البارزة للأصمعي، فعد كثرة الشعر لدى المجيدين من الشعراء معيارا لتفاضلهم، وتقدم بعضهم على بعض، إذ نلمس ذلك من اتخاذه لعدد القصائد المجيدة أساسا لاستحقاق الشاعر بلقب الفحل، فقال في الحويدرة "لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلا" وقال عن أوس بن غلفاء الهجيمي:"لو قال عشرين قصيدة لحق بالفحول ولكنه قطع به".

فقد جعل الأصمعي أدنى حد لعدد القصائد هو خمسة، أما الحد الأعلى فهو غير محدد، ولم يعتد بالأبيات والمقطوعات القصيرة، إلا أن معيار الكم لا بد أن يكون مرتبطا بمعيار آخر هو معيار جودة الشعر.

2. معيار الجودة

ركز الأصمعي في عدة مواضع على معيار الجودة، فالشاعر المجيد له فضل على باقي الشعراء، بل عده المرجع الذي ينهل منه الشعراء، ويمهد الطريق لهم، لذلك قدم امرئ القيس بقوله:"ما أرى في الدنيا مثل قول امرئ القيس....فله الحظوة والسبق وكلهم أخذوا من قوله واتبعوا مذهبه":

وقاهم جدهم ببني أبيهم وبالأشقين ما كان العقاب

3. معيار الزمن

رأى الأصمعي أن ملامح الأصالة والجودة في الشعر لا تتحصل إلا في الأنموذج الجاهلي، لصحة طبعهم، وسلامة لغتهم، وقوة بديهتهم، ويتضح هذا من خلال آرائه فقد سأله أبو حاتم عن جرير والفرزدق والأخطل:"هؤلاء لو كانوا في الجاهلية كان لهم شأن، ولا أقول فيهم شيئا لأنهم إسلاميون".

4. غلبة الشعر على الشاعر

أطلق الأصمعي لفظ الفحل على الشاعر الذي غلب عليه الشعر على أي صفة أخرى، فحين ذكر عروة بن الورد قال عنه:"شاعر كريم وليس بفحل"، وقال عن زيد الخيل الطائي إنه من الفرسان، ووضع حاتم الطائي في خانة الكرم ولم يجعله فحلا.

في الأخير نستنتج أن الأصمعي، ناقد ولغوي وراوية، عرف بتشدده في نقل الشعر، هذا ما جعل تلميذه أبو حاتم السجستاني يسأله ويوثق منه من أشعر شعراء العصر الجاهلي والإسلامي، فراح يطلق صفة الفحل بصورة مبسطة عن طريق المقارنة، انطلاقا من معايير منها: الكثرة، الجودة، والزمن، وغلبة

الشعر على الشاعر...وغيرها، لتعرف قضية الفحولة فيما بعد اهتماما لدى النقاد سواء القدماء أو المحدثين، أمثال ابن سلام الجمحي.

5. في ميزان النقد

أ. هناك بعض الشعراء لم يفصل الحكم فيهم كأوس بن حجر وطفيل الغنوي وكعب بن جعيل...وغيرهم وهناك من لم يقل فيهم شيئا أمثال الجرير والفرزدق والأخطل.

ب. غياب بعض شعراء المعلقات أمثال طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص.

ت. أحكام الأصمعي لم تكن تخضع لمعيار ثابت هذا ما نلمسه في معيار الكم الذي مرة يحده بخمسة ومرة بست ومرة بعشرين...

ث. قصر الأصمعي الفحولة على الجاهليين دون غيرهم.

ج. إن أحكام الأصمعي ما هي إلا أحكام نسبية لأن أغلب شعر العصر الجاهلي ضاع.

في الأخير يمكن القول أن عمل الأصمعي هو عمل ريادي في مجال النقد، والتي فتحت الطريق لمن جاء بعده، انطلاقا من احتكامه على معايير محددة في الحكم على فحولة الشاعر.